ملخص البحث

تألقت مساعي الأروبيين منذ القرن الثاني عشر إلى ما بعد القرن الخامس عشرميلاديين في التعرف على السواحل الجنوبية لتكلل بالنجاح على يد البرتغاليين الذين اكتشفوا عالم افريقيا المجهول جنوب رأس بوجدور وهي الفترة التي أطلق عليها حقبة الكشوفات الجغرافية، وتعد هذه الكشوفات حدثا مهما كان له الوقع الكبير على تغييرمسار التاريخ في العالم عامة وفي إفريقيا خاصة حيث سنشهد معها الإصرار الأوروبي في الوجود الفعلي على سواحل هذه القارة ثم تغلغله فيها بعد ذلك.ومن ثم فالحديث عن السواحل الجنوبية المغربية خلال القرنين 09 و10هـ /15و16م يبقى من الأهمية بما كان لذا قررت اختياره موضوعا لأطروحتي. وهذا الموضوع يستمد أهميته من مجموعة من الإعتبارات،أولها أن المغرب أقرب البلدان الى أوروبا فقد شوهد به الوجود الأروبي بشكل مكثف، وذلك بتأسيس الدول الإيبيرية العديد من المراكز على الساحل الأطلنتي المغربي، وقد رصدت العديد من الدراسات هذا الوجود وحاولت مقاربة أسبابه ونتائجه، غير أن الجزء الجنوبي للمغرب وخاصة الشق الذي يهم وادنون و ماوراءه جنوبا ما زالت تفتقر للدراسة إذ تبقى المعلومات التي توفرت قليلة وغير كافية لتقديم صورة واضحة عن تاريخ المنطقة خلال هذه الحقبة، الشيء الذي يجعل الموضوع بكرا يحتاج الى التنقيب في ومكنونات

وفي هذا الصدد نشيرإلى أن المعلومات بالمصادر البرتغالية تبقى محدودة وغير كافية، إذ لم تعطي ما يكفي فيما يخص أسماء القبائل ونمط عيشها وأهم أنشطتها بل ركزت بشكل خاص على ما شكله رأس بوجدور من رمزية للرعب

والأساطير لدى قدماء البحارة والملاحين ورواد الكشوفات الجغرافية كما ركزت على أهم الرحلات التي قام بها هؤلاء بأمر من الأمير الدون هنري الملاح D.henry الذي أشرف على هذه الرحلات ودعمها، والتي كان معظمها دو غاية إقتصادية تجلت في محاولة التعرف على القبائل ومحاولة إختطاف بعض العناصر لجمع المعلومات وعقد علاقات تجارية مع القبائل.

هذا وركزت المصادر البرتغالية والإسبانية على التنافس بين الدولتين حول هذه المناطق وتدخل الكنيسة في ذلك باعتبارها وسيط لفض النزاعات .

والحق أنه إذا كانت الكتابات الأجنبية خصوصا البرتغالية والإسبانية قد تناولت هذا الموضوع ضمن التعريف بتاريخ الإمبراطوريتين الإستعماريتين الكبيرتين،فإن المصادرالعربية (المغربية والإفريقية) قدمت معلومات عن المنطقة أهمها جاء ضمن كتب الجغرافيا و الرحلات إلاأنها تبقى قليلة بخصوص العصر الوسيط وبداية العصر الحديث وعليه نورد أهم المصادر البرتغالية و الإسبانية التي أفدنا منها في هذا العمل وهي كالتالي :

" "the chronicle of the discovery and conquest of Guinea"تاريخ اكتشاف وغزو غينيا" لصاحبه كوميز إنيس دي ازورار Gomes eannes de azurar، والذي تحدث عن الرحلات البرتغالية التي نظمها الدون هنري، مبرزا صعوبة تجاوز رأس بوجدور ومسجلا جميع المحطات المكتشفة بما فيه السواحل الجنوبية،وقد تناول هذا المصدر المنطقة من ضمن حديثه عن الملحمة

الإستكشافية للبرتغال، غيرأانه يبقى أحد أهم المصادر التي مكنتنا من الحصول على بعض المعلومات عن المنطقة خلال هذه الفترة، والتي تضل ضئيلة لسببين وجيهين أولهما عدم توغل البرتغاليين في المناطق الداخلية حيث لزموا السواحل وثانيها محدودية علاقة البرتغاليين بسكان المنطقة نظرا لممراستهم إختطاف الساكنة مما ولد كراهية لهم،وسنشهد بعض العلاقات المحدودة التي تمثلت في إرجاع الأسرى مقابل تقديم تعويض مهم .

فضلا عن مصدر أخر يحمل عنوان،" كشف الساحل الإفريقي مابين سبتة والسنغال ما بين سنتي(1506 م و 1507.)

« Description de la cote d’afrique de sénégal(1506-1507) »لصاحبه فرناندیس فلانتاين fernandes valentin، وقد تحدث عن غزو سبتة وبعض المراكز شمال المغرب ثم تحدث عن باقي المراكز في الجنوب، حيث ذكر كاب نون cup nounو مار بيكينيا mar piquina و أيضا كاب بوجدور cup boujdor وميناء كاليport galey جنوبا.إضافة الى أركين arguin والمناطق المجاورة له.لكنه في ذات الوقت لم يمدنا بمعلومات كافية عن المناطق الجنوبية، في مقابل ذلك نجده يسهب في المعلومات الدقيقة حول المناطق جنوب أركين حيث يتحدث عن نمط العيش والتجارة والغطاء النباتي والحيوانات والطيور إضافة الى معلومات عن ملابس سكان المنطقة والأسواق.

أما بخصوص المصادر العربية التي قدمت بعض المعلومات عن المنطقة والتي تخص أسماء القبائل، والمعطيات الطبيعية إضافة إلى تمكيننا من معلومات عن واد نون و بعض مدنه ونشاطها التجاري. نذكرمن أهمها كتاب"وصف إفريقيا" للحسن الوزان إضافة إلى كتاب "إفريقيا" لمارمول كربخال هذا الذي أعطى إشارات عن كاب بوجدور كحاجز أفشل الرحلات البرتغالية وذكر بعض هذه الرحلات، فضلا عن المعلومات الجغرافية و أسماء القبائل.

هذا دون أن ننسى وثائق أرشيف المغرب (وثائق تخص إسبانيا في المنطقة خلال القرنين 15 و 16 م.)

(section historique 37,dossier santa cruz di mar piqinae)

وبها معلومات مهمة رغم رداءتها وصعوبة قراءتها، إلا أنها افتقدت في الكتب المصدرية، خاصة المتعلقة منها بمجال واد نون وعلاقته بالإسبان، و كذا عن حصن سانتاكروز دي مار بيكينيا، وحصن أساكا وردود فعل القبائل تجاه وجود هذه القلاع، وبعض الإتفاقيات التي أبرمها التاج القشتالي مع مملكة بوطاطا بوادنون والمناطق المحيطة به.

أما بخصوص الإشكالية الأساس التي تروم الأطروحة مقاربتها فقد تمثلت في معرفة تفاصيل أحداث شهدتها السواحل الجنوبية المغربية خلال القرنين التاسع والعاشر هجريين/الخامس عشر والسادس عشر ميلاديين باعتبارهما محطتين أساسيتين كبداية لتغير موازين القوى في المتوسط وتأثيره على العالم الاسلامي

بمافيه المغرب وعلى العالم بأسره و ذلك أن اكتشاف العالم الجديد أعطى دافعا جديدا لأروبا و زاد من معاناة القارة السمراء.

ولعل ما يضفي أهمية هذه الحقبة الزمنية أن المنطقة المدروسة تاثرت بمجموعة من العومل أفرزت إضطرابا كبيرا مس المجال الاقتصادي والسكاني فإلى جانب ضعف السلطة المركزية في فاس و التي يمكن اعتبارها عاملا رئيسيا شهدت هجرات عربية وافدة أنتجت صداما متواصلا مع قبائل صنهاجة تضررت معه التجارة الصحراوية، خاصة وقد واكبته الرحلات الاستكشافية الإيبيرية، والتي كانت بدورها أحيانا تشن غارات على القبائل الساحلية، وأحيانا أخرى تشرع في ربط علاقات تجارية معها، وهو العامل الذي أنتج صراعا جديدا بين القافلة والكارافيلا جعل الموانئ الساحلية تهيمن على التجارة لينتج عنه تضرر المنطقة إقتصاديا

فانطلاقا من الوضع الذي أصبحت تعيشه المنطقة، والذي فكك البنية السكانية للمنطقة مفرزا تحالفات قبلية جديدة في صراع على المجال، ومؤثرا على الطرق التجارية الصحراوية، محدثا بذلك ضررا على المراكز التجارية الداخلية الصحراوية من خلال نشوء مراكز ساحلية. تحضر مجموعة من الاسئلة تحاول الأطروحة الإجابة عنها نذكر منها

- ماهي أهم التغييرات الحاصلة على البنية السكانية للمنطقة بعد وصول القبائل العربية خلال هده الفترة ؟
- ماهي أهم الثروات التي توفرها المنطقة والتي دعمت التجارة الصحراوية؟

- ماهي أهم الرحلات القديمة التي اقتحمت المحيط الاطلنتي وحاولت الدوران حول افريقيا عبر المساحلة والتي كان المغرب أحد محطاتها قبل القرن الخامس عشر ؟

- ماهي أهم الرحلات الإيبيرية التي اقتحمت الساحل الغربي لإفريقيا وزارت السواحل الجنوبيةخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر؟

- ما هي أهم العلاقات التجارية التي ربطت بين الساحل الجنوبي وشبه الجزيرة الإيبيرية؟ وكيف أثرت على النمط الاستهلاكي لسكانه؟

- ما هي أهم دوافع الكشوفات الجغرافية والتي كانت المناطق الجنوبية محطة لها؟

و للإجابة عن هذه الأسئلة وغيرها تم إقتراح تصميم استهل بتقديم، إضافة لثلاثة أبواب وخاتمة.

خصص الباب الأول للجانب الجغرافي والإجتماعي كباب أساسي أملته الضرورة المنهجية ضم فصلين، تفرد الفصل الأول بتحديد المجال الجغرافي المدروس والحديث عن أهم خصائص المجال الطبيعية والذي خص تحديد الحدود الجغرافية لمجال وادنون والمكونات التضاريسة والمناخية ثم مجال الساقية الحمراء وواد الذهب وتفاصيله التضاريسية و المناخية، أما الفصل الثاني فقد إهتم بالخصائص الإجتماعية التي تهم المكونات القبلية وتفاصيل التحالفات الجديدة بعد وصول الهجرات العربية وصدامها مع المكون الصنهاجي،وأهم ماأنتجه هذا الصدام

من بروز مكونات قبلية جديدة وهرم إجتماعي وظيفي وتأثير ذلك على التجارة الصحراوية وكذلك تأخير جهاد المسحيين على السواحل.

أما الباب الثاني والمكون من فصلين بدوره، فقد تناول الأول منها الحديث عن المحيط الأطلنتي في المصادر العربية من كتب التاريخ وأهم الرحلات التي إقتحمته.

حيث تناولت المصادر العربية أوصاف متعددة للبحر المحيط وقد أسهبت في إعطاء معلومات عن حدوده و مخاطره و أهواله ومايحتويه من جزر،وماكونته المخيلة الانسانية عنه ومانسج من أساطير وخرافات والذي يمكن اعتباره سببا وجيها في تأخر اكتشاف غرب افريقيا والعالم الجديد. بينما تم التركيز في الفصل الثاني على جل الرحلات القديمة التي نظمت قبل القرن التاسع هجري / القرن الخامس عشرميلادي. وقد تم تصنيفها حسب الفترات حيث تم ذكر الرحلات القديمة التي حاولت إقتحام البحر المحيط والدوران حول إفريقيا وتمت مناقشة مدى صحتها،فضلا عن تناول رحلات الفترة الوسيطية والتي بدورها حاولت إعادة المحاول وتحدي الصعاب بهدف الوصل الى مجاهل المحيط و الدوران حول إفريقيا لتحقيق منافع إقتصادية أو علمية . وتم التطرق أيضا لرحلات الفترة الحديثة التي سلكت عباب المحيط و أيضا التي اتخدت البر مسلكا لها .

أما الباب الثالث فقد تناول الرحلات الإيبيرية بالسواحل الجنوبية المغربية فخصص الفصل الاول للمحاولات الإيبيرية خلال القرن الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين،حيث تم تناول المحاولات البرتغالية التي بدأت باحتلال سبتة سنة 1415م ثم انطلقت الى باقي المدن الساحلية الشمالية،والتي لم نذكرها جميعا

حيث ركزنا على إنطلاق الرحلات البرتغالية في إتجـاه الجنـوب التـي تجـاوزت رأس نون وفشلت في تجاوز رأس بوجدور ولم تستطع النجاح في ذلك إلا بعـد محـاولات عديدة.

فتح هذا النجاح للبرتغال أبـواب افريقيـا، حيـث تلـت رحلـة إكتشـاف رأس بوجدور رحـلات أخـرى وصـلت الـى وادي الـذهب وتجاوزتـه لتصـل الـى أركـين،ثم واصلت في اتجاه السواحل الجنوبية لإفريقيا. وقد أدى ذلك إلى إصطدام البرتغاليين بسكان المنطقة بعد محالوتهم المتكررة في الهجوم علـى الأفـراد و اختطـافهم،ثم محاولة ربط علاقات تجارية مع السكان.

نهجت إسبانيا نفس الأسلوب حيـث أنهـا بعـد ضـمها لجـزر الخالـدات كثـف الإسبان هجوماتهم على الساحل الجنوبي محاولين إختطاف السكان والسطو على الممتلكات هذا العمل سيتطور إلى محاولة بناء حصون على الساحل لخلق علاقات تجارية .حيث تم بناء حصن سانتاكروز دي مار بيكينيا إضافة الى حصن باساكا على ساحل سان ميكيل واخر بتكاوصت وحصن اخر برأس بوجدور .

واكب هذه الأحـداث محاولـة تنصـير السـاكنة او علـى الأقـل المختطفـين فضلا عن محاولة تنشيط التجارة بالحصون التي فيما يبـدو كانـت محـدودة بسـبب محاولات المغاربة تحرير الحصون و طرد الإسبان وقـد إنتهـى ذلـك بتحريرهـا علـى عهد السعديين.

تناول الفصل الأخير أهم المراكز التجارية التي نشطت خلال هـذه الفتـرة في الساحل الجنوبي حيث كانت تكاوصت مركزا تجاريا نشيطا خلق علاقات تجارية

مع الإسبان واستقبل التجارة الوافدة من السـودان الغربي.فضـلا عـن مركـز سـانتا كروز دي ماريبكينيا الذي ظلت تجارته محدودة والمعلومات عنهـا منعدمـة باسـتثناء بعض الإشارات .إضافة الى مركز أركين في أقصى الجنوب والذي كان أكثر نشـاطا وتحفل المصادر عن نوع البضائع به وحجم هذه التجارة.

وقد تم ذكر أنواع البضائع المتاجر بها والتي شملت الصادرات نحو أوروبـا والواردات منها.فبالنسبة للصادرات فقد شملت العبيـد و الـذهب والعنبـر فضـلا عـن بضائع أخرى. وقد كانت تجارة الرق أهمها و أكثرها ربحا.حيث توسـعت مـع مجـئ الإيبيريين.وقد بدأت باختطاف السكان المحليين ثم محاولـة تسـليمهم مقابـل مبـالغ كبيـرة أو مقابـل عبيـد ذوو بشـرة سـمراء.لكن مافتئـت هـذه التجـارة أن توسـعت خصوصا بعد اكتشاف البرتغاليين مراكز جديدة .فأصبحت هذه التجـارة أكثـر تنظيمـا مستمدة الدعم من المؤسسة السياسية و من ترخيص كنيسي باعتباره عتق لهـؤلاء من الكفر والهمجية.

نالت تجارة الذهب ذات المكانة و حاول الإيبريون الوصول الى منابع هذه البضاعة محاوليين تغيير مصيرها نحو المحيط و تأزيم التجـارة الصـحراوية وبالتـالي تراجع الموارد الإقتصادية للدولـة السـعدية.غير أن منـابع الـذهب بافريقيـا ستصـبح ثانوية بعد اكتشاف العالم الجديد الذي كان ينعم بمناجم غنيـة ضـاعفت مـن حجـم المعادن النفيسة نحو أروبا تراجعت معه مكانة المنـاجم الإفريقيـة. ثـم تـأتي بـاقي البضائع التي بدورها كان عليها طلب كبير.

إستقبل الساحل الجنوبي بضائع جلبها الأروبيون كالتبغ هذا المنتوج الغريب عن العادات الإستهلاكية للساكنة حيث تغلغل ليصبح أحد المنتوجات التي أصبح عليها

إقبال بعد ذلك .وقد خلق تناوله خلافا بين الفقهاء بين من حرمه نظرا لضرره و من سكت عن ذلك ومن جعله مباحا وأقبل على تناوله.

فضلا عن هذا اشتهرت السواحل الجنوبية بغناها بالأسماك الذي جعل قطاع الصيد البحري ينشط من طرف الأروبيين بالمنطقة خصوصا الإسبان القاطنين بجزر الكناري .

وأخيرا خاتمة حاولنا فيها الوصول إلى مجموعة من الخلاصات والإستنتاجات تخص المنطقة خلال هذه الفترة حيث تشير جل المعطيات الى مرحلة الصراع بين ضفتي المتوسط والتي تميزت بالتوازن بين الضفتين غير أن ذلك لن يستمر حيث ستتغير الموازين لصالح أروبا الذي يولد طرح أسئلة تظل فارضة نفسها بقوة تخص القرنين 16م و 17 م على طاولة النقاش العلمي الأكاديمي.